عصر النهضة

الأسرة السادسة والعشرون

مقدمة عن أصل الأسرة السادسة والعشرين

ذكرنا في الجزء التاسع من هذه الموسوعة أن الجنود المرتزقة من اللوبيين الذين كانوا يعملون في جيش ملوك الأسرة الواحدة والعشرين، قد منحوا أحد قوادهم وهو «شيشنق الأول» مؤسس الأسرة الثانية والعشرين ملك مصر. والواقع أن الجيش المصري منذ نهاية الأسرة العشرين كان مؤلفًا فعلًا من الجنود اللوبيين المرتزقة الذين كانوا يطيعون رؤساءهم طاعة عمياء، وقد جاء ذلك على ما يظهر تمهيدًا لإحلال «شيشنق» أحد عظماء قواد هؤلاء الجنود المرتزقة محل آخر ملوك الأسرة الواحدة والعشرين.

وقد كان الضعف المتناهي الذي وصل إليه نفوذ ملوك هذه الأسرة حافزًا قويًّا ودافعًا أغرى هؤلاء الجنود المرتزقة، الذين قضت عليهم الأحوال بالفراغ وعدم الصبر بالسيطرة على البلاد، أو بشن الغارات في خارجها. وكان نتيجة ذلك أن آل ملك مصر إلى رئيس هؤلاء الأجناد، فإن جموعهم المنبثة في أنحاء البلاد — التي كان من الصعب توحيدها — لم يجعل لهم مطمحًا إلا التمتع في وادي النيل الخصيب باستقلال سياسي تام بقدر المستطاع. هذا ولم يكن في قدرة الملك رئيسهم الأعلى أن يقف في وجه طائفة قوية لها مطالبها الملحة، يُضاف إلى ذلك أن الانقسام في صفوف كهنة «طيبة» كان سببًا في حرمانه مساعدتهم وهي من الأهمية بمكان، ولا أدل على ذلك من أن مصر العليا لم تعترف في الحال بالملك الجديد، ومن المحتمل في هذه الفترة أن كان جزء كبير من كهنة «آمون» قد نفوا أنفسهم

عن طيب خاطر إلى بلاد «النوبة العليا»، يُضاف إلى ذلك أن كل مقاطعة من مقاطعات «مصر الوسطى» و«مصر السفلى» كانت محكومة وقتئذ برئيس «لوبي»، وتفسير ذلك كما أسلفنا من قبل أن رؤساء اللوبيين كان لهم حاميات منذ زمن بعيد في المدن الرئيسية في أنحاء القطر، وبذلك كان في مقدورهم دون أية صعوبة أن يستولوا على مراكز القيادة المحلية، وبذلك كان في استطاعة رئيس كل فرقة من الجيش أن يكافئ جنوده ويجعلهم بوجه خاص يلتفون حوله، وسبيل ذلك أنه كان يثبتهم في إقطاعاتهم الغنية، وكان ملوك الأسرة الواحدة والعشرين قد وزعوا فعلًا قطعًا من الأرض على الجنود اللوبيين، ولكن الظاهر على وجه التأكيد أن الجنود كانوا قد استتبوا فعلًا على حسب الإدارة الجديدة في إقطاعات كبيرة المساحة أغنى بكثير مما سبق (راجع Herodotus, II, § 168).

وتدل ظواهر الأحوال على أنه في خلال القرنين من ٩٥٠–٧٥٠ق.م قد بقيت الأسرتان الثانية والعشرون والثالثة والعشرون على عرش الملك لسببين:

أولهما: أن الرؤساء التابعين لهما من اللوبيين كانوا يطيعون حكام المقاطعات، وكان مجرد مظهرهم كفيلًا بحفظ التوازن بين قوى عدة متكافئة يعارض بعضها بعضًا.

ثانيهما: أن جيران مصر من أمم العالم لم يكونوا يؤلفون خطرًا عليها. وكانت البلاد الأجنبية التي يخشى بأسها وقتئذ هي دولة «العبرانيين»، غير أنها كانت لحسن حظ مصر قد قسمت بعد عهد «سليمان» قسمين متناحرين.

ولكن النظام الذي وضعه «شيشنق الأول» — وكان يشابه كثيرًا النظام الإقطاعي في القرون الوسطى — كان لا يلتئم إلا قليلًا مع دولة نفس تكوينها الجغرافي لا يمكن أن ينسجم إلا مع نظام ثابت غاية في التقدم من حيث الإدارة. هذا وما دام الذين كانوا على عرش الملك يعرفون قوة شخصياتهم وفرض إرادتهم، فإن سلطاتهم كانت تُحترم في كل مكان، ولكن عندما كان يعتلي عرش «بوبسطة» في ذلك الوقت ملوك ضعفاء أو عاجزون عن إدارة حكومة البلاد، كانت الفوضى تسري في جسم البلاد وتثبت فيها أقدامها. والواقع أن البلاد المصرية كانت تنوء بعبء الانقسام وقتئذ، فمنذ بداية القرن الحادي عشر قبل الميلاد كانت تحكم أرض الكنانة أسرتان، إحداهما في الوجه القبلي والأخرى في الدلتا. وحوالي عام ٧٥٠ق.م شاهدنا «مصر الوسطى» و«مصر السفلى» مقسمتين بين ثلاث أو أربع أسرات، في حين أن الوجه القبلي كان تحت حكم «الكوشيين»، وفي تلك الفترة رأى أمير شجاع من أبناء مصر أن الفرصة مواتية لتحقيق مطامحه الشخصية والقومية، وذلك بجمع شمل مصر كلها وتوحيدها تحت حكمه.

أصل الأسرة السادسة والعشرين

يدل ما لدينا من وثائق على أن «تفنخت» أمير «سايس» كان من أصل لوبي كما حدثتنا بذلك لوحة «بيعنخي». وإذا كنا لا نعرف شيئًا عن أسرته ولا عن حالة أملاكه، عندما أصبح سيدًا مطاعًا في الدلتا ومصر الوسطى حوالي عام ٧٣٠ق.م، فإن المصادر التاريخية لا تعوزنا كثيرًا في تاريخ كفاحه المجيد لاسترداد استقلال «مصر» من يد «بيعنخي». ويدل ما كتبه عدوه «بيعنخي» على أنه كان رئيسًا صاحب نشاط ومشاريع تؤكد طموحه، إذ قد أصبح في زمن قصير ملكًا مطاعًا في كل أنحاء الدلتا الشرقية من أول شواطئ «البحر الأبيض» حتى «منف»، وقد أفاد من ضعف حكام المقاطعات المجاورين لها وانقسام بعضهم على بعض، ففرض قوانينه وأنظمته الحكومية على الأسرات التي كانت تحكم في وسط الدلتا وغربيها، وقد اعترفوا دون أية صعوبة بسلطانه، وقدموا له المساعدة والعون عندما قرر الشروع في إخضاع الأمراء اللوبيين في «مصر الوسطى» لسلطانه تمهيدًا لطرد «الكوشيين» من «مصر العليا».

والظاهر أن «تفنخت» لم يقابل وقتئذ إلا مقاومة ضئيلة في تأمين قوته على شاطئ النيل حتى مشارف «بني حسن». ولم يقف في وجهه عقبات في تحقيق مشاريعه إلا مدينتين وهما: «أهناسيا المدينة» التي كان مضطرًّا أن يضرب عليها حصارًا قويًّا، ثم مدينة «الأشمونين» التي لم تلبث أن سلمت له وانضمت إلى لوائه.

والواقع أن «الكوشيين» كانوا في تلك الفترة قد استولوا فعلًا على كل «الوجه القبلي»، ووضعوا فيه حاميات من الجنود «الكوشيين» في المراكز الرئيسية على النيل بعد «طيبة»، وكانت مدينة «هيراكليو بوليس» = أهناسيا المدينة تعد الحد الشمالي لنفوذهم، وقد ذعر «بيعنخي» بحق عندما سمع بأخبار حصار هذه المدينة، وأرسل جيشين أوقفا زحف «تفنخت» نحو الجنوب وحاصرا «أهناسيا المدينة»، غير أن جنوده أهملوا متابعة جنود أمير «سايس» الذين حولوا طريقهم محاولين الاستيلاء على «الأشمونين».

وقد أغضب ذلك «بيعنخي» وصمم على قيادة جيشه بنفسه، ولم يلبث أن أخضع أمير «الأشمونين» قبل أن ينحدر في النيل إلى «منف» التي استولى عليها بهجوم مفاجئ. وعلى الرغم من الجهود اليائسة التي بذلها «تفنخت» فإن الجيش «الكوشي» قد استمر في تقدمه الظافر في ربوع الدلتا. ولما كان أمير «سايس» موطدًا العزم على المقاومة، فإنه احتمى في مناقع الدلتا الوعرة المسالك على الجنود الأجانب، غير أن حلفاءه انفضوا من

حوله الواحد تلو الآخر دون أن يحارب أحد منهم معه مما جعله يقدم خضوعه للملك «بيعنخي» الذي قبله بلهف وكرم، وعلى إثر ذلك عقد له «تفنخت» يمين الطاعة والولاء.

ومما يُؤسف له أن الحوادث التي أعقبت ذلك الاستسلام ليست معروفة لنا تمامًا، وكل ما نعلمه أن «بيعنخي» بعد أن أتم فتوحه لمصر كلها عاد إلى «نباتا» عاصمة ملكه البعيدة الواقعة بالقرب من «الشلال الرابع»، فهل يا ترى قدر هذا الفاتح العظيم قيمة عدوه «تفنخت»، وما كان له من أنصار وأتباع وعهد إليه بالسيطرة على الأمراء «اللوبيين»؛ حتى يعوقه عن تأليف حلف آخر من الأمراء ليقاوم الغزو «الكوشي»؟

وكذلك تساءل هل سمح لأمير «سايس» بعد تسليمه أن يضع اسمه في طغراء ملكية في مقابل ولائه، وبذلك يصبح ملكًا على البلاد ولو اسمًا؟ والواقع أن عدم وجود «تفنخت» في زمرة المهزومين الذين نراهم مصورين في الجزء العلوي من لوحة «بيعنخي» يجعل أمامنا مجالًا للاعتقاد في ذلك، ولكن الأرجح أن «بيعنخي» بارتكابه غلطة ترك بلاد الدلتا دون احتلالها عسكريًّا ثم ترك كل الأمراء المحليين في مقاطعاتهم قد مهد فرصة مواتية للأمير «تفنخت»؛ ليحتل المكانة العليا التي كان قد فقدها مؤقتًا، ومع ذلك فإنه قد عرف كيف يضع حدًّا لمطامعه، فقنع بتمكين سلطانه على الدلتا بقوة فاعترفت به ملكًا، وقد مكث حكمه عليها على أقل تقدير ثمانية أعوام (راجع L. R., III P. 409).

ومهما يكن من أمر فإن حملة «بيعنخي» الهائلة قد أظهرت الضعف المتناهي الذي وصل إليه نسل «شيشنق الأول» في أواخر أيامه. فقد كانوا لا يعرفون كيف ينظمون المقاومة أو يفيدون من الفرص التي أتيحت لهم ليستولوا من جديد على السلطان في البلاد. وعلى أية حال فإنه بعد ارتداد «الكوشيين» إلى «نباتا» تسلط «تفنخت» على «الوجه البحري»، كما كان يسيطر عليه قبل وصولهم إليه.

وهكذا أسست في الدلتا أسرة ثالثة «لوبية» تناست من أمراء «سايس»، وقد قضت الأحداث التاريخية أن يواجه أخلاف الفاتحين اللوبيين غزوات عدة لأرض الكنانة من «كوشيين» و«آشوريين» و«فرس» فيما بعد.

ونجد في كل مرة أن روح المقاومة للغاصبين يأتي من أحد أمراء بيت «سايس»، فنشاهد كلًّا من «بوكوريس» و«نيكاو» و«بسمتيك» قد قفا نهج «تفنخت» مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين — ومن نسله ملوك الأسرة السادسة والعشرين على حسب ما جاء في «مانيتون» — ولكن بحظوظ متباينة.

خلف «بوكوريس» والده «تفنخت» دون معارضة، وعلى الرغم من أن رقعة ملكه كانت ضيقة المساحة إلا أنها كانت منظمة تنظيمًا حسنًا. وتعد الأساطير التي انحدرت

إلينا من هذا العهد — الملك «بوكوريس»[1] واحدًا من ستة المشرعين العظام الذين ظهروا في مصر القديمة. ولا نزاع في أن الدلتا كانت تتمتع في عهده بسلام ورخاء كافيين يسمحان له بأن يلعب دورًا هامًّا خارج حدود بلاده.

والواقع أن هذا الملك «الساوي» كان يقلقه تقدم «الآشوريين» الذين كانوا قد أضاعوا النفوذ المصري الذي أعاده «شيشنق الأول» في «فلسطين»، وقد خاف وقوع غزوة مصر على يد جنود «سرجون الثاني» (٧٢١–٧٠٥ق.م) وقد اتبع «بوكوريس» سياسة والده الواقعية التي لم تتردد في الاتحاد مع إسرائيل على «آشور»، وقد اهتم بتكوين حلف من أمراء «فلسطين» و«صيدا» وأمده بمساعدة عسكرية، غير أن جيش الحلف هزم هزيمةً نكراء، وأرخت النجدة المصرية لساقيها العنان مولية الأدبار. وقد كانت هذه الخيبة الحربية سببًا في أن نفض «بوكوريس» يده من كل من تدخل في الشرق، وعلى أية حال فإنه كان مهددًا بغزوة «كوشية» جديدة (راجع Leclant Revue D'Egypt, T. VIII, P. III, note I).

وقد أعد «بوكوريس» نفسه ليحارب داخل بلاده إذا أغار عليه العدو، غير أن الحرب دارت دائرتها عليه ولم يكن ملك «كوش» وقتئذ وهو «شبكا» رحيمًا كما كان سلفه «بيعنخي»، فقد أخذ «بوكوريس» أسيرًا وحرقه حيًّا (حوالي ٧١٥ق.م) كما قيل.

والواقع أن معلوماتنا ناقصة عن هذا الفتح «الكوشي» الثاني، وكذلك لا نعرف نتائجه على مملكة «سايس»، ويمكن تفسيره كره «شبكا» للملك «بوكوريس» بأن «بيعنخي» كان قد أعاد «تفنخت» إلى عرش «سايس» وأن ابنه قد اقترف خيانة حقيقية، وتدل شواهد الأحوال على أن المملكة «الساوية» قد أقيمت دون موافقة «الكوشيين»، ولكن لما كان الملك «شبكا» يشعر بالخطر «الآشوري» فإنه رأى من الصواب أن يسمح بوجود أسرة «لوبية» ثالثة في «سايس». ولا بد أن أخلاف «بوكوريس» قد اتخذوا من موته موعظة، وعلموا أن مصيرهم سيكون كمصيره إن هم شقُّوا عصا الطاعة وحلوا عقدة تبعيتهم وخضوعهم أو قاموا بمعارضة الخطط «الكوشية». ويتساءل الإنسان هل أعطوا ضمانًا لذلك؟ وهل اكتفوا بأن يقوموا بإدارة البلاد وحسب؟ وهل كانوا دائمًا ملاحظين من جانب جنود الاحتلال «الكوشي»، الذين كانوا بعيدين عن قواعدهم وخافوا قيام ثورة وطنية؟ ولا شك

[1] راجع Diodorus Siculus. loeb. Ed., vol. 1, P. 321 f.

في أن هؤلاء كانوا يتكلون على مساعدة مصريي الدلتا في حالة تهديد غزو «آشوري» لهم؛ ولذلك فضلوا أن يشعروا الملوك الشرعيين ظاهرًا بالقوة. غير أنه لم يبدُ مؤكدًا من هذا إلا شيء واحد، وهو أنه بعد موت «بوكوريس» نجد أن رجال أسرته قد حافظوا على امتيازاتهم الملكية.

وقد ظل ملوك «سايس» ما بين عامي ٧١٥–٦١٥ق.م خاضعين تمام الخضوع للفاتحين «الكوشيين»، وقد كان من العسير عليهم أن يحصلوا على الطاعة التامة من أتباعهم القدامى، وكان من مصلحة المحتلين تمامًا ألا تهدأ المشاحنات التي تسهل لهم عملهم. وتاريخ الملوك المصريين الذين عاشوا في عهد «شبكا» و«شبتاكا» غامض جدًّا بوجه خاص. وقد حفظت لنا أسماؤهم، غير أنه من المستحيل أن نقرر بوجه التأكيد الروابط الأسرية، التي تربط بعضهم ببعض حتى يمكننا القطع بالحوادث التي اشتركوا فيها.

والملك «نيكاو» جد المتعبدة الإلهية «نيتوكريس» من جهة أبيها معروف لنا جيدًا. ولا يدل حكمه «سايس» وسلوكه في أثناء الغزوات «الآشورية» أو الفتوح الجديدة «الكوشية» بصورة قاطعة على أنه ينتسب إلى الأسرة «اللوبية» الثالثة التي قامت في «سايس»، إذ الواقع أنه كان في مقدور كل من «شبكا» و«شبتاكا» أن يتصرف في عرش «سايس» على حسب ميله، وإن كانت شواهد الأحوال تدل على أنه في عهد «شبتاكا» قامت حروب داخلية استدعت مجيء «تهرقا» وإخوته معه لمعاونة أخيهم الملك (راجع مصر القديمة الجزء الحادي عشر).[٢]

ونكتفي هنا أن نفرض — وهو أمر محتمل — أن «نيكاو» كان من نسل «بوكوريس» دون أن نحكم بأنه ابنه أو حفيده من الفرع الأكبر أو من الفرع الأصغر للأسرة. وقد حكم «نيكاو» حوالي ثماني سنين، وقد كان بداية توليه العرش عندما غزا «الآشوريون» مصر وكانت الإمبراطورية العظيمة التي أسسها «بيعنخي»، وتمتد من «الشلال الرابع» إلى «البحر الأبيض» في يد «تهرقا العظيم». وكان متخذًا «تانيس» مقرًّا لحكمه ليشرف عن كثب على حدوده الشرقية. وكان يحلم كما فصلنا القول في ذلك من قبل في إعادة «سوريا» للنفوذ المصري. وفي تلك الفترة كان «أسرحدون» ملك «آشور» الجديد مضطرًّا إلى إعادة استقرار ملكه الذي كان مهددًا لمدة بسبب قتل والده غيلة. وقد رأى «تهرقا» أن الفرصة سانحة لنيل مأربه. فأثار الاضطرابات والثورات في «آسيا» على الحكم «الآشوري»، غير أن

[٢] راجع Unger, Chronologie des Manetbo. P. 271.

«أسرحدون» لم يجد عناءً كبيرًا في قمع الثائرين، وبعد ذلك بقليل دخل الجيش «الآشوري» مصر، وقد سهل عليه غزو «مصر» التقهقر السريع الذي قام به «تهرقا». فقد وصل إلى «طيبة» بسرعة ثم تابع تقهقره حتى وصل إلى «نباتا» عاصمة ملكه. على أنه باستيلاء «أسرحدون» على «منف» خضعت له الدلتا بسرعة، وعندئذ أسرع الملك «نيكاو» ملك «سايس» بالاعتراف بسيادة «أسرحدون»، ولما كان «نيكاو» يأمل بعد موت ملك «آشور» في أن يحصل على بعض الفائدة، فإنه أسبغ اسمًا آشوريًّا على عاصمة ملكه كما سمى ابنه «بسمتيك» اسمًا آشوريًّا أيضًا. وهذا الملق المشين قد ينم عن خور ونذالة في وطنيته، ولا عليه في ذلك أكثر من اللوم الذي كان يقع على عاتق «منتومحات» أمير «طيبة» آنذاك، فقد سلك مسلك الرجل الذي يبيع وطنه بأبخس الأثمان، وهو بعيد عن كل خطر وتهديد من «الآشوريين». فقد ذهب إلى «أسرحدون» عن طيب خاطر مقدمًا له الجزية، ولم يكن لديه من الأسباب ما يدل على زحف العدو على مدينته، هذا إلى أنه كان لديه الوقت الكافي لأن يعمل حسابه لإمكان تقهقره نحو بلاد «النوبة» أو بلاد «كوش» نفسها، ولا يستسلم للعدو دون أية مقاومة، ولكن قد يكون من الخير ما فعله إذ حفظ المدينة المقدسة من يد التخريب والعبث بآثارها، كما فعل الفرنسيون في الحرب الأخيرة عندما سلموا «باريس»، فحفظوها من الدمار ولم يكن في مقدور «أسرحدون» بعد إحراز هذا النصر أن يبقى مدة طويلة أكثر من اللازم بعيدًا عن مقر ملكه في «نينوه»؛ ولذلك فإنه اكتفى بالغنائم التي جمعها من الجزية وبإخضاع أمراء «الدلتا» في نفس الوقت ثم عاد إلى «آشور».

أما «تهرقا» فإنه نزل إلى النيل ثانيةً غازيًا وبعد هزيمة «الآشوريين» صفح عن «نيكاو» كما صفح عن «منتومحات»، وبذلك أصبحت مملكة «سايس» من جديد تحت سيادة «الكوشيين».

أما «أسرحدون» فإنه استعد لفتح مصر مرة أخرى عندما علم بحملة «تهرقا» ولكن المنية عاجلته.

وبعد ذلك قام ابنه وخليفته «آشور بنيبال» عام ٦٦٨ق.م بمشروع فتح مصر تنفيذًا لخطة والده، فوضع أحد قواده على رأس جيش عظيم، وتقابل مع جيش «تهرقا» فهزمه وولى «تهرقا» هاربًا إلى «الوجه القبلي»، وعلى أثر ذلك أصبحت «منف» والدلتا من جديد تحت السيادة الآشورية. وعندما أراد قائد «آشور بنيبال» اقتفاء أثر «تهرقا» حتى «طيبة» أمده «نيكاو» الذي كان يحكم «سايس» و«منف» وقتئذ بجنود من جيشه، غير أنه لم ينقطع عن الاتصال بالكوشيين سرًّا رغبةً في إعادتهم ثانية. وقد كشف أمر هذه الخيانة

الآشوريون وعلى ذلك قبض على «نيكاو» وابنه «بسمتيك» وبعض أتباعهما، وسيقوا إلى «نينوه» في السلاسل والأغلال.

وقد عرف ملك «سايس» و«منف» وهو في الأسر كيف يستهوي الملك «آشور بنيبال»، ويكسب ثقته حتى إنه عفا عنه وأعاده إلى «مصر» محملًا بالهدايا، واعتلى عرش ملك بلاده ثانية، وكذلك أنعم على ابنه «بسمتيك» فضلًا عن ذلك بولاية بلدة «أتريب» بمثابة إقطاع له. وقد كان لزامًا على «نيكاو» أن يبقى مقابل ذلك مواليًا للملك «آشور بنيبال». هذا ولم يكن في مقدور «تهرقا» أن يسترد سلطانه على «الوجه البحري». ولكن خلفه على عرش ملك «كوش» وهو «تانو تأمون» قرر على حسب رؤيا في منام له أن ينحدر من «نباتا»، ويخلص الدلتا من يد الآشوريين، وقد اصطدم بالقرب من «منف» مع حامية «آشور بنيبال» وجنود «نيكاو»، وهزمهم وأسر «نيكاو» في الواقعة التي دارت بين الفريقين في عام ٦٦٣ق.م — وليس لدينا ما يحملنا على الاعتقاد بأن «نيكاو»، الذي أخذه «تانو تأمون» أسيرًا قد أعدم — (راجع De laporte, Le proche Orient, P. 260).

والظاهر أن سياسة «نيكاو» كانت سياسة واقعية جدًّا، وذلك أنه لما رأى أن كلًّا من الملك «تفنخت» والملك «بوكوريس» سلفيه ليس لهما إلا عدو واحد يناهضهما في الملك هو ملك «كوش» وجد من العبث القيام في وجهه في تلك الفترة، غير أنه في عهده كان الموقف معقدًا؛ وذلك لأن مصر كانت محط أنظار كل من «الكوشيين» و«الآشوريين»، وقد أصابها الضعف فلم تصبح قادرة على محاربة غزاتها من «الآشوريين» و«الكوشيين»؛ ولذلك وجد من الحكمة أن يسير على حسب مقتضيات الأحوال. والواقع أنه كان على رأس مملكة «سايس» الملك السياسي المحنك الذي تتطلبه الأحوال وقتئذ، وفي الحق لقد قام «نيكاو» بدور حرج جدًّا ولكن بمهارة بين «الكوشيين» و«الآشوريين» عدوي مصر. فنجد أنه كان في بادئ الأمر تابعًا للملك «تهرقا»؛ ولذلك فإنه تلقى أخبار الحملة الأولى «الآشورية» بكل حماس وهي التي خلصته من ملك غير مشرف، غير أن إعادة فتح البلاد على يد «الآشوريين» قد جعله يفكر مليًّا، إذ نظر باحتقار وازدراء إلى مقاصد الآشوريين من فتحهم لبلاده، وفهم أنهم لم يكونوا يفكرون في جعل «مصر» مديرية من إمبراطوريتهم وحسب، بل إن ملك «نينوه» لم يكن يبحث إلا على التغلب على بلاده التي دلت على التقاليد على أنها كانت مصدر ثروة طائلة. ومن أجل ذلك بقي «نيكاو» مواليًا «لتهرقا» منذ الحملة الثانية الآشورية. ومع ذلك فإن مدة مكثه أسيرًا في «نينوه» قد فتحت عينيه وغيرت أفكاره، وعندما عاد إلى «مصر» وجد من الحكمة ألا يخدع بإغراء «الكوشيين»

له، فقد أملت عليه مصالحه الخاصة أن يكون على ود ومصافاة مع «آشور بنيبال» ملك «آشور» والمسيطر على «مصر». وقد كان ملك «كوش» وقتئذ «تانو تأمون» يفضل «مصر» على بلاده «كوش»، أما «آشور بنيبال» الذي كان وقتئذ يسيطر على إمبراطورية شاسعة المساحة مترامية الأطراف مليئة بالثورات، حافلة بالاضطرابات، فكان لا يهتم بوادي النيل؛ ولذلك فإنه بعد سحق «الكوشيين» لم يهتم بوادي النيل إلا من الوجهة السياسية، ومن ثم كانت الفرصة التي طالما ارتقبها ملك «سايس» سانحة لتوحيد ملك «مصر»، ولم يخطئ «نيكاو» في حسابه ولم تكن آماله بعيدة المنال، فقد حققتها حوادث المستقبل على يد ابنه «بسمتيك» (؟).

والواقع أن الحوادث التي وقعت بين «كوش» و«آشور» قد سببت تأخير تولي «بسمتيك» عرش مصر، وذلك أن الملك «تانو تأمون» قد استمر عبثًا في مطاردة أتباع ملك «سايس» في الدلتا. وقد أبوا منازلته واعتصموا في حصون بلادهم، وفي خلال تلك المدة التي خاف فيها الملك الشاب أن يكون مصيره مصير «بوكوريس» فر إلى «سوريا»، وعاد بجيش آشوري إلى «مصر» ليستولي به عليها. وكان عليه أن يطارد «تانو تأمون» ويقفو أثره حتى «الشلال الأول». والواقع أن إعادة فتح «مصر» كان سهلًا ميسورًا، فقد طورد «تانو تأمون» حتى «الوجه القبلي»، وبعد ذلك هرب إلى «نباتا» بعد أن خربت «طيبة» خرابًا شاملًا. وبعد ذلك استولى «بسمتيك الأول» على إرث والده إثر وفاته. وقد اعترف صغار الأمراء في كل أنحاء الدلتا بسلطان «بسمتيك الأول» عليهم.

هذه نظرة عابرة إلى الأحداث التي سبقت اعتلاء بسمتيك الأول عرش مصر، وتأسيس الأسرة السادسة والعشرين التي أعادت لأرض الكنانة بعض غابر مجدها وسؤددها في العالم المتمدين وقتئذ.

الأسرة السادسة والعشرون أو عصر النهضة

لا نزاع في أن أول ظهور للأسرة الساوية كان في عهد الملك «بيعنخي» الكوشي، كما أشرنا إلى ذلك من قبل (راجع الجزء الحادي عشر)، وذلك عندما ظهر الحاكم «تفنخت» أمير «سايس»، وأخذ في مناهضة العاهل الكوشي «بيعنخي». وقد أفلح «تفنخت» في ضم كثير من جهات القطر المصري، ولكنه اضطر في آخر الأمر إلى الخضوع إلى سلطان «بيعنخي» مؤقتًا. ومن ثم نرى أن سلطان الأسرة «الساوية» قد بدأ منذ نهاية الأسرة الثالثة والعشرين عندما احتل «كشتا» الوجه القبلي، وتدل شواهد الأحوال على أن «تفنخت» هو

مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين أو الأسرة اللوبية الثالثة على الرغم من أن «مانيتون» لم يذكره في قائمة هذه الأسرة، بل قال: إن الملك الوحيد الذي تتألف منه هذه الأسرة هو الملك «بوكوريس» — باكنريف — الذي تحدثنا عنه في الجزء الحادي عشر. والآثار المصرية القليلة التي بقيت لنا من هذا العهد تمكننا مع ذلك من التعرف على سلسلة من الأمراء الساويين، مما يسهل علينا ربط «بوكوريس» والملوك الذين تسموا باسم «نيكاو»، وكذلك الذين تسموا باسم «بسمتيك» وهم الذين تتألف منهم الأسرة السادسة والعشرون «المانيتونيه»، ويكاد يكون من المؤكد أن الأسرة السادسة والعشرين ليست إلا امتدادًا للأسرة الرابعة والعشرين، ولا شك في أن الانزواء المؤقت للأمراء الساويين الذي حدث في خلال الأسرة الرابعة والعشرين ونهاية الخامسة والعشرين يقابل الفترة التي استولى فيها على «مصر» ملوك «كوش»، الذين كانوا يؤلفون الأسرة الخامسة والعشرين، ولكن لا بد من أن نلفت النظر هنا بوجه عام إلى أن نسل هؤلاء «الساويين»، الذين قهرهم «بيعنخي» وغيره من ملوك «الكوشيين» هم بدورهم الذين انتقموا من الغزاة، وانتصروا عليهم انتصارًا باهرًا وردوهم على أعقابهم إلى عقر دارهم «نباتا» في الجنوب.

وهؤلاء الملوك وعددهم خمسة قد تحدثنا من قبل عن اثنين منهم، وهما «تفنخت» و«بوكوريس» (راجع الجزء ١١). وقد اختلف علماء الآثار في تحقيق أسماء الملوك الثلاثة الآخرين، كما اختلفوا في ترتيبهم (راجع في هذا الموضوع ما كتبه Petrie, History of Egypt, vol. III. P. 312–24; Gauthier, L. R. IV P. 406–16).

وعلى أية حال نجد أن آخر هؤلاء الملوك «نيكاو الأول» الذي قاوم «الآشوريين» وهو والد «بسمتيك» مؤسس الأسرة السادسة والعشرين.